المرأة والأسرة فى الفكر الاجتماعي والحضارة

دكتورة / ليلى عبد الوهاب

**بالرغم من أن الدراسة العلمية للأسرة قد بدأت متأخرة- أواخر القرن التاسع عشر – نتيجة لتطور مناهج البحث فى مجالات معرفية أخري ، كمجالات علوم البيولوجيا – الأنثولوجيا – الأنثروبولوجيا، إلا أن الأسرة وشئونها كانت موضع اهتمام الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين علي مر العصور والحضارات الانسانية.**

**وجدير بالملاحظة أن اهتمام المفكرين والفلاسفة ودراسة شئون الأسرة لم يكن اهتماماً لذاتها بقدر ما كان اهتماماً بإدراجها كجزء من دراستهم لشئون الدولة بصفة عامة ، وكذلك فقد اتسمت دراساتهم بالذاتية ، والتجريد فلم تخرج تفسيراتهم عن التأملات الفلسفية القائمة علي الأخلاق والدين ، لذلك كانت أقرب إلي الوصايا والأحكام الأخلاقية منها إلي الاجتماع العائلي ، ومع هذا فقد أفادت كل المجالات الفكرية السابقة علي نشأة علم الاجتماع العائلي فى هذا الميدان نظرياً ومنهجياً ويمكن تقسيم دراسة الأسرة فى الفكر الاجتماعي والحضارة إلي المراحل التالية:**

1. **الشرق القديم.**
2. **الأغريق القدماء.**
3. **الرومان والمسيحية.**
4. **العرب والمسلمون.**
5. **عصر النهضة فى أوروبا.**

**وجدير بالذكر أن آراء الفلاسفة والمفكرين في الأسرة قد تضمنت ايضاً رأيهم في المرأة ودورها ومكانتها ، وعكست تلك الآراء والأفكار درجة التطور الحضاري التي مرت به المجتمعات الانسانية سواء علي المستوي المادي (نمط الانتاج وعلاقاته + نمط الملكية + شكل البنية الطبقية) أو علي المستوي المعنوي (الأخلاق والفلسفة والدين والقيم السائدة).**

**إن الحضارة Culture لا تنشأ من فراغ ولا تعيش من فراغ ، لكنها تعكس نمط الانتاج وعلاقات الملكية السائدة في ظل تكوين اقتصادي اجتماعي معين، وقد تميزت الحضارة علي مر عصور تاريخية طويلة (العبودية – الاقطاعية – الرأسمالية) بأنها حضارة طبقية أبوية في نفس الوقت والحضارة التي نعيشها الأن هي نتاج لتلك الحضارات.**

**والحقيقية التي أكدتها كثير من البحوث والدراسات التاريخية أن القيم والفكار والمثل والأخلاق والعادات والتقاليد قد اختلفت من وقت لأخر ، ومن مجتمع لمجتمع أخر حسب الظروف الاجتماعية والحالة الاقتصادية التي تحددها علاقات الانتاج فى المجتمع . فمثلاً كان من السهل دائماً علي البشر فى كل العصور أن يغيروا من نظم الزواج ونظم العلاقات الجنسية حسب الظروف الاقتصادية دون أي اعتبار لما سمي بالقيم الأخلاقية . ففي فترات الفقر وازدياد عدد السكان يباح قتل الأطفال ، ويباح الاجهاض وتحرم العلاقات الجنسية خارج الزواج، وتشجيع الناس علي عدم الزواج أو علي الزواج مع تحديد النسل ، ويستطيع أي مجتمع فى أي وقت أن يستخرج من قيمة الدينية والأخلاقية ما يتمشي مع مصالح الطبقة المهيمنة والمسيطرة فى المجتمع.**

**ومما يؤكد ذلك وجود بعض القبائل الفقيرة التي تقع جنوب الهند وتبيح تعدد الأزواج وليس الزوجات. إذ أن عدداً من الرجال أو الشقاء يتزوجون امرأة واحدة ، فهذا بالإضافة إلي توفير النفقات ، فإنه يقلل عدد الأطفال ، وقد حدث تعدد الأزواج فى عهود كثير لأسباب اقتصادية مختلفة . عند العرب قبل الاسلام . وفى اليونان القديمة حيث كان القانون يبيح تعدد الأزواج وكان الأطفال الزائدون عن حاجة الدولة يقتلون بأن يلقوا بهم فى مقبرة سميت بمقبرة "تاجبيتوس" كما كان اليونان القدماء يسمحون بجميع العلاقات الجنسية خارج الزواج بشرط ألا يؤثر علي ثروة الزوج أو تنتقل ميراثه إلي طبقة أدني أو أطفال رجل أخر.**

**وفيما يلي عرض لبعض نماذج من أفكار الفلاسفة والمفكرين فى مختلف العصور القديمة والحديثة كإشارة للحضارة الطبقية الأبوية التي تسود العالم حتي الأن.**

الأسرة والمرأة فى الحضارة المصرية القديمة:

**يري المؤرخون أن نظام الأسرة فى مصر القديمة كان يتمتع بقدر من الاستقرار ، وكانت الأسرة المصرية خاضعة لنظم ومراسم دقيقة فى شئون الزواج والطلاق. ويتميز النظام الأسري بخصائص ثلاثة:**

1. **السيادة الأبوية.**
2. **التربية الأخلاقية.**
3. **الحرص علي أداء العبادات والطقوس.**

**وقد نصت التعاليم والوصايا علي تبصير رب الأسرة بشئون أسرته وبالواجبات الملقاة علي عاتقه لأن الأسرة هي الخلية الحية التي يتركب منها جسم الدولة فيجب الحرص علي سلامتها . وبالرغم من أن الأسرة المصرية القديمة كانت ذات سلة أبوية يسيطر فيها الرجل علي الأسرة. إلا أن المرأة كانت تقاسمه العمل وتتمتع بقدر من الحرية وقدر من ارتفاع مكانتها، وسمحت الأسرة المصرية القديمة بتعدد الزوجات والطلاق وأوصت بالأطفال واليتامي والمترملات والمطلقات. ومع ها فقد كان التعدد وزواج المحارم ينتشر بصفة خاصة بين نساء طبقة الملوك والأمراء. وقد تمتعت النساء فى ظل هذا الطبقة بمزايا مكنتهن من الصدارة وتولي شئون الحكم . ويكفي الاشارة إلي اثنتين من اشهر من حكمن فى التاريخ من أشهر من حكمن فى التاريخ المصري القديم وهن حتشبسوت ونفريتي.**

**ولا ننسي ان هذه المجتمعات قد شهدت فى مراحل سابقة النظام الأمومي وكانت الديانات القديمة تنصب الآلهة من الإناث والذكور ، كما كانت الطقوس السائدة تمجد الحياة لا تفرق بين الذكور والاناث وتحترم الجنس. علي عكس ما حدث بعد ذلك فى ظل المجتمعات الطبقية الأبوية التي ظهرت فيما بعد بظهور الملكية الخاصة ونشأة التبادل وظهور الطبقات. ففي ظل هذه المجتمعات بدأت الطقوس والشعائر ترتكز علي الموت والدمار. وعلي تأثير الجنس علي التفرقة بين الاناث والذكور.**

**ففي مصر القديمة بعد أن كانت الديانات تؤكد علي الحياة وتحترم الولادة وترفع من شأن المرأة عالياً وتجعلها مثل "إيزيس" ألهه الخلق والخير والحياة تغير الأمر بعد سيطرة نظم الملكية الخاصة حيث سيطر الرجل علي الأسرة والمجتمع وتغيرت الديانات وأصبحت ترتكز علي الموت والدمار، وسيطرت علي المجتمع علاقات جديدة تقوم علي الجشع والصراع والتقاتل علي توسيع الأملاك وما حدث فى مصر القديمة حدث أيضاً فى المجتمع الإغريقي القديم وفى الهند والصين.**

الأسرة والمرأة فى الصين القديمة "كونفوشيوس" :

**يعد كونفوشيوس أشهر وأبرز حكماء الصين وقد كانت له تعاليمه فى مختلف أمور الحياة ،إلا أنه كان من أول من اهتموا قديماً ببحث شئون الأسرة . وقد أوضح أهمية الأسرة فى النظام الاجتماعي بالحرص علي مقوماتها ومدي تأديتها لوظيفتها.**

**وترتكز الأسرة الفاضلة عند كونفوشيوس عل يالدعائم الآتية :**

**أ-التضامن الطبيعي بين عناصرها.**

**ب-الطاعة طاعة الأبناء للآباء والزوجات للأزواج.**

**ج-التطهر والاخلاص والمعرفة.**

**د-المشاركة الوجدانية بين عناصرها كالمحبة والشفقة والعطف.**

**ويري أن عدم توفر عناصر من هذه العناصر يهز دعائم الأسرة. كما حدد أربعة واجبات ملزمة أودعتها العناية الآلهية وهي واجبة طاعة الوزير للملك ، والأبن لواده، والزوجة لزوجها، والأخر الأسغر للأكبر. وهذه هي الدعامة الأخلاقية للشعب وخصصته. وعن مكان المرأة فى الصين القديمة فهي لم تختلف عن مصر والهند فى مراحل نشأة الكلية وظهور الطبقات اتجهت الديانات فيها لتحقير المرأة وجعلها مجرد جارية لزوجها. كما تعتت ووصمت بأسواء الصفات وتحرم علي سبيل المثال كتب الهند المقدسة المرأة من الحق فى الحرة وفى امتلاك الثروة .ويقول سفر الجامعة : "لقد وجدت المرأة اشد مرارة من الموت".**

الأسرة والمرأة عند الأغريق القدماء:

**لقد اهتم فلاسفة اليونان القدماء بتفسير الأسرة فى إطار تناولهم لنظام الدولة وما يجب أن تكون عليه . ومن أبرز هؤلاء الفلاسفة أفلاطون وأرسطو.**

**وقد شمن أفلاطون أرائه عن الأسرة فى فلسفته عن المدينة الفاضلة عندما تحدث عن نظام الأسرة فى :**

**أولاً : طبقة الفلاسفة والمحاربين:**

**وقد قام أفلاطون مدينته الفاضلة علي أساس مشاعية النساء فى هذه الطبقة، وطالب بالمساواة بين الجنسين فى الحقوق والواجبات ، كما أقترح خضوع الأطفال بنين وبنات لتربية اجتماعية واحدة تتولي أمورها الدونة كما طالب بفرض رقابة فعالة علي هؤلاء الأطفال وأن تتخذ الاجراءات التي تحول دون معرفة الأمهات لأطفالهن حتي لا تشغل النساء بعواطف الأمومة، عن الرجل وتلبية رغباته وامتاعه.**

**ثانياً : طبقات الشعب :**

**وقد رأي أن تقوم الأسرة فى هذه الطبقات عل يوحدانية الزوج والزوجة . وترتكز عل يالتعاقد المشروع . ويباح الطلاق.**

**أما أرسطو فقد ذهب إلي أن الأسرة هي أول اجتماع تدعو غليه الطبيعة ، وتتألف الأسرة عند أرسطو من الزوج والزوجة والأبناء والعبيد . وقد رأي أن الطبيعة هي التي حددت المراكز الاجتماعية لأفراد الأسرة فجعلت الرجل فى مركز السيد والنساء والعبيد فى أدني مرتبة إجتماعية . ومن المعروف أن أرسطو مع غيره من فلاسفة اليونان القدماء قد حقروا من شأن ومكانة المرأة وجردوها من كل الأدوار حتي دور الانجاب. فقد ذهب أرسطو إلي أن العامل الأساسي الإيجابي فى التناسل هو الحيوان المنوي الذكري الذي يحتوي عل يالجنين الانساني الكامل ولا يحتاج فقط إلا تجويف داخلي (الرحم) من أجل أن ينمو ويتغذي . وظن أرسطو أن المرأة إذا ساهمت فى صنع الجنين فهي تساهم بمادة خام غير حية . أم الرجل وحده فهو الذي يمنح الطفل الحياة.**

**وبالطبع فإن العلم الحديث والنظريات الفسيولوجية الحديثة قد أثبتت خطأ كل أفكار أرسطوا عن التناسل بل علي العكس تماماً فقد تبين أن الجنين يتكون من التحام بويضة المرأة بالحيوان المنوي للرجل وبدون البويضة لا يتكون الجنين ، كما أن الجنين يحمل الصفات الوراثية لكل من الزوج والزوجة معاً .**

**وهذا يؤكد أن أراء وأفكار أرسطو وغيره من الفلاسفة الذين تأثروا به وحذوا خذوه كانت تعبر عن وجهات نظرهم الشخصية التي تحمل مضموناً طبقياً وأبوياً فى تفسيرهم للمجتمع والمرأة عل يحد سواء.**

**ويعود أرسطوا ليدعم فلسفته الطبقية الأبوية عندما أن الطبيعة والعوامل الوراثية قد منحت الرجل السلطة المطلقة بينما فرضت علي المرأة الطاعة والفضيلة ويحدد مظاهر سلطة الرجل فى ثلاثة مظاهر هي :**

1. **سلطة السيد : وهي سلطته علي إرقائه ويمثلها أرسطو بالسلطة الديكتاتورية.**
2. **سلطة الأب : وهي سلطته علي أبنائه ويمثلها بالسلطة الملكية.**
3. **سلطة الزوج : وهي سلطته عل يزوجته ويمثلها بالسلطة الجمهورية.**

**وبالرغم من تحديد أرسطوا لنمط سلطة الزوج علي زوجته بأنها ذات طابع جمهوري أي ديمقراطي ، إلا أن هذا التصنيف يتناقض مع جملة أرائه عن المرأة خاصة عندما خصها بصفة الطاعة . لذلك فالسلكة الزوج علي زوجته فى ضوء مجمل أفكاره هي أقرب للسلطة الديكتاتورية.**

**هذا وقد تطرق أرسطوا ايضاً لأمور أخري فى الأسرة والزواج عندما تكلم عن سن الزواج بالنسبة للفتاة وبالنسبة للرجل ، كما تناول أيضاً مسألة انحلال الأسرة والخيانة الزوجية.، وتطرق أيضاً لشئون الطفول فأيد سياسة تحديد النسل وتكلم عن مراحل نمو الطفل وحددها فى مراحل ثلاث متتالية:**

1. **التكوين الجسماني والبيولوجي.**
2. **نشأة القوة النزوعية والعصبية.**
3. **نشأة النفس العاملة.**

**ومع اختلافنا الكامل مع آراء أرسطو إلا أن هذا لا يمنع أن نقرر حقيقة أن آرائه قد ساهمت بشكل كبير فى وضع أسس الاجتماع العائلي، كما أثرت فى العديد من المفكرين والفلاسفة والعلماء فيما بعد.**

**وقبل أن ننتقل إلي عرض دراسة الأسرة عند الرومان والمسيحية يجدر الإشارة هنا إلي أن أرسطوا فى موقفه المعادي للمرأة كان واحداً من بين العديد من الكتاب والفلاسفة الأغريق الذين غالوا فى إزدراء المرأة والتحقير من شأنها . فيثاغورس علي سبيل المثال يميز بين "مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور والرجل، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضي والظلمات والمرأة ويعلن أبقراط أن المرأة هي فى خدمة البطن"[[1]](#footnote-1) ويعرج أرسط أن "الأنثي خلقت أنثي بسبب نقص معين لديها فى الصفات حدث نتيجة خطأ وقع للحيوان المنوي للرجل" إلا أن الحقيقة التي تكشفها الحفريات والديانات القديمة فى اليونان قبل نشأة الملكية الخاصة وانتشارها وظهور المجتمع العبودي الطبقي الأبوي، تؤكد أن هذه المجمتعات قد شهدت العصور الأمومية ويستدل مع ذلك بأن معظم الآله القديمة كانت إناثاً يرمزون بها إلي المطر والخضرة والخير والجمال مثل الآله "باليزم" وألآله أستريت" وألاله "ماجنا" وألاله "فينوس".**

**وفى هذه المراحل كانت تمجد الحياة والطبيعة والانسان ويحترم الجسد ورغباته ، وتحترم العلاقة بين النساء والرجال. إلا أن هذا الوضع قد تبدل بنشأة المجتمعات الطبقية التي يسيطر عليها الرجل، ويسيطر الأسرة الأبوية تغيرت الأفكار والمعتقدات واتجهت إلي الفصل بين جسد الانسان وروحه وعقله واعتبرت المرأة ممثلة للجسد والرجل ممثلاً للروح والعقل. ومجدت الروح ليمجد الرجل، وحقر الجسد لتحقر المرأة، كما تغيرات وتحولت الطقوي والشعائر الدينية من احترام الجسد واحترام المرأة إلي تأثيم الجسد والهروب الصوفي منه وبدي هذا واضحاً فى تدنيس المرأة المتزوجة وتقديس المرأة العذراء.**

الأسرة والمرأة عند الرومان وفى المسيحية:

**كانت دعائم المجتمع العبودي قد بدأت تكتمل فى ظل المجتمع اليوناني سواء فى مرحلة الكلاسيكية أو فى ظل العصر البطولي[[2]](#footnote-2) وبهذا بدأت ملامح العائلة الأبوية تتشكل بوضوح واكتمل نموها فى ظل المجتمع والحضارة الرومانية القديمة.**

**وقد كانت العائلة عند الرومان تتكون أساسً من العبيد ، وقد أوضح أنجلز ذلك بقوله أن كلمة عائلة Familia لم تكن تعني فى الأصل عند الرومانيين الزوج والزوجة والأبناء، بل تعني مجموعة من العبيد يخضعون لرجل واحد. وقد تطورت فيما بعد لتعريف الهيئة الاجتماعية الجديدة التي كان رئيسها سيداً علي المرأة والأولاد وعدد من العبيد الذين يمتكلهم وبحكم القوانين والسلطة الأبوية الرومانية ، كان السيد يملك حق الحياة والموت علي جميع هؤلاء الأشخاص الخاضعين له.**

**وقد ظهر فى ظل هذا الشكل للعائلة الزواج الأحادي رجل محل الزواج الثنائي أو التعددي لأجل ضمان ابوة الأبناء الذي سيورثهم الأب خيراته من بعده. ولتحقيق هذا وضعت الزوجة تحت سلطة زوجها المطلق فإذا قتلها فإنه لا يفعل غير أن يمارس حقه.**

**كما أن حق الطلاق كان حكراً علي الزوج فقط فهو وحده الذي يتمتع بحق فسخ الزواج. ويمكن تحديد أهم ملامح العائلة فى المجتمع الرواني فى الاتي :**

1. **سلطة مطلقة للرجل علي العبيد والنساء والأطفال.**
2. **سيدة نمط الزواج الأحادي.**
3. **سلطة الطلاق من حق الرجل فقط.**

**ومع مجئ المسيحسية داعب النساء والعبيد أم لعظيم فى التحرر والاعتاق، ولكن سرعان ما خاب ظنهم عندما تحولت المسيحية من دين للفقراء والمضطهدين إلي دين دولة.**

**وقد حاول رجال الدين والكنيسة أن يضفوا شرعية دينية عل يالاضطهاد الطبقي والجسي الذي كان يعاني منه العبيد والنساء كما روجوا لكثير من الأفكار التي تدنس المرأة وتحقر من شأنها.**

**وقد رأوا فيها مفسدة الانسان ومسخ الشيطان وهلاك الروح ، وقد قال ترتوليان فى هذا المعني أن رأس حواء هي المسئولة عن الاثم كله ولهذا يجب أن نعطي رأسها احتقاراً لهذا الرأس المدنس الأثم ووصفها القديس يوحنا بقوله "ليس هناك بين كل وحوش الأرض المفترسة من هو أشد أذي وضرراً من المرأة" أم القديس أوجستين فقد أكد علي علاقة العبودية بين الرجل والمرأة بإعطائها شرعية دينية بقوله "أن الرجل هو الروح السامية ، وأن الأنثي هي الأدني ذات الجسد والشهوة الجنسي، أن الرجل فى صورة أدم هو الزوج الذي هو صورة من صور الله . وأن حواء حين جاءت فقد جاءت فقط لتكون زوجة أدم ولتلد أطفاله" أي أن المرأة دورها هو دور الأم المنجبة فقط أما فيما عدا ذلك من أدوار فهي مرفوضة تماماً.**

**وفى العصور الوسطي الاقطاعية كانت المرأة تعتبر ملكاً للرجل، وكانت جزءاً من إقطاعيته، ومصيرها بيد صاحب الاقطاعية ز وكان من حق "الفارس" أن يسئ معاملة زوجته وأن يضربها وأن يعاقبها عقاباً معقولاً وأن يهبها ويورثها لغيره، وحتي ان يبيعها . وضماناً لوفاتها له كان يحبسها فى "حزام العفة" إذا ما اظطر إلي السفر فى حرب من الحروب. كما لم يكن للأم أي سيطرة علي أبنها منذ بلوغه السابعة من عمره ، وكان من حقه أن يعلن نفسه راشداً ووصياً علي أمه بالذات إذا توفي والده. وهذا فى ظل طبقة المحاربين النبلاء (الاقطاعيين) أما فى طبقة الاقنان (الفلاحين) فم لتكن زوجة القنن أكثر من دابة تعيش بائسة محتقرة، جاهلة مسحوقة تحت وطأة الإقطاع والزوج.**

**وقد روج لهذه الأوضاع فيلسوف ذلك العصر توماس لاكويني الذي اتفق مع أرسطوا فى كل آرائه وأفكاره عن الأسرة والمرأةوأكد علي كل ما جاء بها بقوله أن الرجل خلق للأنشطة النبيلة والمعرفة الفكرية أما المرأة فرغم أن لديها روحاً عاملة إلا أنها وجدت من أجل الجنس فقط وهي ليست إلا وسيلة للتناسل من أجل حفظ النوع" وبرغم تأييد لاكويني لأفكار وآراء أرسطوا إلا أنه اختلف معه فى جزئية خاصة بتعليم الأبناء. فبينما رأي أرسطو أن تعليم الأبناء هي مهمة المرأة ، رأي لاكويني أن مهمة تعليم الأبناء هي مهمة الرجل لأنه يملك القوة والسيطرة والحكمة اللازمة للتعليم. وأصر توماس لاكويني بهذا الرأي علي أن يضم الأطفال إلي الب فى حالة الطلاق ، علي أن يبقوا مع الأم اللاث سنوات الأولي من العر. ومن ناحية السلطة قرر "لاكويني" أن المرأة قد كتب عليها أن تحيا تحت هيمنة الرجل وأ تكون لها اي سلطة فى الأسرة.**

**هكذا يتضح لنا أن الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين بترويجهم لمثل هذه الأفكار إنما كانوا يسعون من أجل أن تسود القيم الاقتصادية المطلوبة في ذلك الوقت وهي القيم التي تقوم علي تدعيم نظم الإقطاع والملكية والتوريث وفرض النظام الأبوي ليورث الأباء أطفالهم الشرعيين فحسب، أما أطفالهم الغير شرعيين فهم مندسين ولدتهم نساء مدنسات ولا حق لهن فى الرض أو الميراث ولا حق لهن فى النسب أو حمل إسم الأب.**

الأسرة والمرأة عند العرب والمسلمين:

**نالت الأسرة والمرأة عند العرب قبل الاسلام وبعده اهتماماً كبيراً واتجه الاهتمام بشئون الأسرة فى أمور الزواج والطلاق والنسب والإرث كما نلات علاقة المرأة بالرجل عناية كبيرة ظهرت فى العديد من كتابات المؤرخين العرب والمسلمين.**

**إلا أنه من الملاحظ أن كتابات المؤرخين قد أنصب معظمها علي شئون الأسرة والمرأة بعد الاسلام ، مكتفين بالإشارة إلي أن العصر الذي وصفوه "بعصر الجاهلية" قد تميز بانحلال الأسرة وفسادها وانحطاط وضع المرأة ويدللون علي ذلك بظاهرتين هما : انتشار تعدد الزوجات المطلق وانتشار ظاهرة وأد البنات.**

**ويري الغزالي حرب فى كتابه "استقلال المرأة فى الإسلام" أن إهمال المؤرخين لتاريخ العرب قبل الاسلام ذلك التاريخ الذي امتد من سنة ألف وخمسمائة ق.م إلي سنة 622 بعد الميلاد، ثم الفترة التي تلت ذلك وأطلقوا عليها عصر الجاهلية والتي تقدر مدتها بين مائة وخمسين سنة إلي مائتين وخمسين سنة ، هو ليس من الأنصاف للحقيقة والتاريخ، خاصة أن هذا التاريخ الطويل الممتد قد شهد كثير من المعالم الإيجابية خاصة فى استقلال المرأة العربية وارتفاع مكانتها.**

**ويضيف الغزالي حرب طأن إقرارنا بفضل الاسلام علي المرأة العربية لا ينبغي أن يحول بيننا وبين أنصاف الحقيقية والتاريخ بأسلوب علمي موضوعي لا صله له بخطب المنابر وسيوفها الخشبية وتهاويلها الوعظية.**

**وقد عرض الغزالي لمظاهر استقلال المرأة وعلو شأنها وارتفاع مكانتها فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، فى ضوء ما اصطلح عليه الباحثون والمؤرخون فى تقسيمهم هذا التاريخ إلي ثلاثة أقسام هي :**

**1-البائدة. 2-العارية. 3-المتسعربة.**

أما البائدة:

**فيري أنهم الذين بادوا ، وجاء الحديث عن بعض قبائلهم فى القرأن الكريم مثل "عاد وثمود" "وادي القري" ويرجح الغزالي أن تكون دولة حمواربي من العرب البائدة نظراً لعراقتهم فى القدم ، ورجوعها إلي القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وهو القرن لاذي كانت فيه هذه الدولة تحكم بابل وسائر بلاد العراق حكماً يشهد للعرب بأنهم من اسبق الأمم إل يالمدنية والعلم ، كما نتطلق بذلك "شريعة حمورابي" التي عثروا عليها فى بلاد "البسوس" منقوشة بالحرف المسماري علي مسلة الحجر السود الصلب قبل ظهور شريعة موسي والتوراه المنزلة عليه بثمانية قرون أو أكثر. وقد كفلت هذه الشريعة المؤلفة من "281" مادة للمرأة حقها فى تولي منصب القضاء والحكم، وفى مقاضات الرجل مقاضاة الند للند ، وفى ان تخلفه فى ملكية الأرض والوصاية علي الأولاد. وفى حضانة أولادها إذا طلقها الرجل وفى مزاولة المهن والأعمال كالرجل سواء بسواء.**

أما العاربة :

**فهم القحطانيون الين اشتهرت منهم دولتين هما "سبأ وحميرط وقد ظهرت دولة سبأ قبل الميلاد بثمانية قرون. وأعتلت المرأة فيها الحكم وتعد "بلقيس" نية اليشرج ولكن سبأ من أشهر الملكات فى تاريخ العرب القديم وقدم شهد لها بقوة الفراسة ، وحسن الحيلة وبعد النظر فى استجلاء الحقائق العامة وتدبير شئون الملك، وقد حكمت بلقيس دولة سبا لمدة خمسة عشر عاماً.**

**ولمك تكن بلقيس هي النموذج الوحيد الفريد فى ذاك التاريخ العربي العريق ، بل هناك ملكات عربيات أخريات حكمن منهن "الملكة خلدو والملكة شقيلة الثانية والملكة شقليه الثالثة"، وقد حكمن دولة الأقباط ، أما ثاني أهشر ملكة عربية فقد ظهرت فى القرن الثامن الميلادي بمدينة "تدمر" في الشمال الشرقي من دمشق و الملكة " زنوبيا " أو زينب أو "الزباء " ويعتبر عصرها من أزهى العصور واستطاعت بحكمتها واستقلالها وقوة و شخصيتها أن تبسط سلطنها على مصر وسوريا ولبنان وبعض العراق و جزيرة العرب.**

أما العرب المستعربة:

**فكانوا يعيشون فى شمال بلاد اليمن فى تهامه ونجد والحجاز الى مشارف الشام والعراق ويسمون " الاسماعيلية " نسبة الى جدهم الأعلي إسماعيل بن إبراهيم كما يسمون "العدنانية" نسبة إلي عدنان الذي ينتهي إليه جد النبي محمد بن عبد الله.**

**وبالرغم من أن تاريخ هذه المنطقة لم يشهد إمرأة واحدة وصلت إلي المكانة السياسية المرموقة التي وصلت إليها المكلات العربيات الأخريات، فليس معني ذلك أن المرأة العربية قبيل الإسلام كانت محرومة من كافة حقوقها كما يحلوا لبعض الباحثين أن يجردوها من كل الفضائل والمزايا.**

**ويستشهد الغزالي علي مظاهر احترام المجتمعات العربية قبل الإسلام للمرأة وتقديهرم لها بالآتي :**

1. **يمشي الشعر العربي فى هذه الفترة بمديخ المرأة لاحساسها المرهف وذوقها السليم ، وبالدعاء لها. كما يظهر منه اعتزاز العرب وفخرهم بشهادة المرأة تقديراً لها.**
2. **إفتخار كثير من قبائل العرب وملوكهم وشعرائهم بنسبتهم إلي أمهاتهم ومن اشهر العرب الذين أثروا الانتساب إلي إمهاتهم فى فخر واعتزاز عمرو بن هند ، وأوسي بن حارثة وليد بن ربيعة وابن ميادة وغيرهم كثيرين.**
3. **ومن أعظم ظواهر الاحترام للمرأة فى بعض القبائل العربية قبل الاسلام تمتع المرأة بحريتها كاملة فى اختيار زوجها، ثم فى الخلاص منه والانفصال عنه إذا أرادت . ومن أمثلة هؤلاء بهية صغري كريمات زين بن حارثة ، والزباء ابنه علقمة الطائي وتماضر بنت الشريد وغيرهن . كذلك فهناك العديد من النساء اللاتبي تزوجن والعصمة بأيديهن.**
4. **أما بخصوص حرية المرأة فى الانفصال عن زوجها واحترام هذه الحرية ، فقد عرف، المرأة البدوية أنها إذا أرادت إشعار زوجها برغبتها فى لانفصال عنه ، كانت تحول باب بيتها أو خيمتها إلي جهة مضادة للجهة التي تعود الدخول عليها منها، فيفهم الزوج أن زوجته قد رغبت عنه وزهدت فيه فيفارقها بناء عل يطلبها ورغبتها.**

**وهذا وقد شاركت المرأة العربية الرجل فى كافة ميادين الحياة الاجتماعية كميدان العمل والتجارة ، وميدان الطب والتمريض وميدان القتال وميدان الخطابة، وميدان الشعر ونقده ، وميدان الفن والغناء، ويعطي الغزالي أمثلة عديدة من النساء شاركن فى كل هذه الميادين.**

**ومع كل ما تقدم فإنه لابد من تحليل سوسيولوجي لكل ما أورده الغزالي من حقائق عن استقلال المرأة واحترامها فى المجتمعات العربية القديمة وقبل الاسلام . وبالطبع تحليلنا السوسيولوجي سوف يعتمد علي البحث فى العلاقة بين هذه الأوضاع المتميزة وبين نمط الانتاج الذي ساد في هذه المناطق فى تلك الفترات التاريخية وعما إذا كان هذا الوضع كان سمة جميع النساء أم كان يخص طبقات بعيتها؟ وسوف نجمل تحليلنا السوسيولوجي فى النقاط التالية:**

أولا ً: **أنه بدون شك يمكن تقرير أن المجتمعات العربية القديمة فى مناطقها الحضارية المختلفة قد شهدت فى فترة من فترات تطورها المرحلة الأمومية ، فالعديد من الملامح والمظاهر التي أوردها الغزالي والتي حققها كثير من العلماء والمؤرخين فى بحوثهم ودراستهم تؤكد أن المرأة كانت تتمتع بمكانة مرموقة وبقدر من الاستقلال والحرية وقدر أخر من احترام المجتمع تقدير لها. والمؤكد أن هذا الوضع لم يظهر من فراغ فلابد من شروط موضوعية تساعد عل يخلق هذا الوضع أو علي تدهوره ومن أهم هذه الشروط الموضوعية، الشرط الاقتصادي متمثلاً فى نمط الانتاج وعلاقاته ونمط الملكية السائدة ، والواضح فى العرض السابق أن التاريخ العربي القديم الذي تناوله الغزالي تتميز فيه المجتمعات العربية بظهور النظم الطبقية وهذا يتضح من أن كل النساء اللائي أشار إليهن كن يمثلن طبقة الملوك أو قبائل الأشراف فى الجزيرة، مع ملاحظة أن اليمن القديم والشام والعراق كانت مناطق زراعية تطورت فيها بعد التجارة إلي جانب الزراعة ، بينما مناطق الجزيرة كانت مناطق صحراوية تعيش فيها القبائل علي النمط البسيط للانتاج الرعوي الذي تطور فيما بعد وأصبح يعتمد اعتماداً أساسياً علي التجارة.**

**ومع أن النظم الطبقية وضحت معالمها إلا أن الشكل الأبوي للأسرة لم يكن قد اكتمل بعد ، وكان المجتمع الأمومي لا زالت بعض ملامحه باقية . ويشير إلي ذلك تقلد المرأة لمناصب الحكم ووجود عائلات تحمل نسب الأم، وحرية المرأة فى اختيار الزوج وحقها فى تطليقه، وحرية المرأة فى التملك والتصرف فى ماله. وهذا هو ما حدث كما ذكرنا من قبل فى المجتمعات المصرية والأغريقية القديمة.**

ثانياً : **أن هذا الوضع لم يستمر فقد تطورت علاقات الانتاج والملكية فى هذه المجتمعات بشكل أدي إلي نشأة المجتمع العبودي والاقطاع والبورجوازي التجاري، وفى ظل هذا التطور بدأت الفجوة بين الأغنياء من الملوك والأمراء والإشراف تزداد، كما بدأت الملكية ونظم التبادل تلعب دورها الحاسم فى تطور شكل الأسرة ، فتبدلت العلاقات القائمة علي السيادة الأمومية بعلاقات الأسرة ذات السلطة الأبوية ، وبدأ نظام النسب والتوريث عن طريق الأب يسيطر علي نمط العلاقات داخل الأسرة والمجتمع فأصبح تاالأمراء والإشراف أسياد علي فقراء المجتمع الذين تحولوا إلي عبيد وتحولت النساء فى الطبقات الفقيرة غلي جواري وورقيق أبيض يباع ويشتري ويرث.**

**هكذا فى نفس المناطق حدثت تطورات وتحولات أدت إلي انحطاط مكانة المرأة فإنتشرت ظاهرة التعدد للزوجات للإمعان فى تحقير المرأة التي أصبحت مجرد متاع للرجل ، كما أطلقت الحرية الكاملة للرجل فى الطلاق.**

ثالثاً : **لقد خلق هذا الوضع نسقاً من القيم ينظر إل يالمرأة عل يا،ها عار ونذير بالشر لا بشيراً بالخير، وهذا مما ساعد مع انتشار الفقر غلي ظهور عادة وأد البنات التي لم تكن أصيلة فى هذه المجتمعات.**

**وجدير بالذكر أن هذه العادة لم تقتصر علي وأد البنات فقط كما هو شائع بل كانت بين الاناث والذكور معاً . ففي الطبقات الفقيرة مع ازدياد الفقر كان يلجأ رب الأسرة إلي وأد أبنائه من الذكور والاناث، أما عادة وأد البنات فقد انتشرت بين بعض قبائل الإشراف التي اعتبرهن عاراً ورجساً من عمل الشيطان ، والحقيقة أنها كانت تتلخص منهن رغبة منها فى أن يؤول الارث إلي البناء الذكور فقط، ولا ننسي أن وأد الأبناء كان منتشراً أيضاً فى مراحل التدهور والفقر فى مجتمعات اليونان والرومان القديمة كما سبق وأن رأينا.**

**لقد جاء الاسلام ومجتمع الجزيرة يمتلئ بالظلم والاستغلال وانتشار العديد من الظواهر الاجتماعية المرضية وسيطرة طبقة علي سائر الطبقات فى المجتمع الذين تحولوا إلي عبيد لهذه الطبقة الممثلة فى قبائل الإشراف فى نجد والحجاز وتهامة فى الجزيرة العربية . ولقد جاءت شريعة الإسلام لا لتعالج المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربي فحسب. بل لتنظيم كافة العلاقات الانسانية علي صعيد العالم بأسره، لذلك فهي لم تنطو علي قوانين محددة جامدة وملزمة ، بقدر ما حوت من مبادئ عامة قادرة علي استيعاب المتغيرات التي تظهر فى بعدها المكاني والزماني أي التي تختلف من مجتمع لأخر ومن فترة تاريخية إلي فترة تاريخية أخري.**

**إن إنتصار الدعوة الإسلامية وانتشارها الواسع يشهد علي أنها لم تكن مجرد دعوة دينية إلي التوحيد ، فهناك شعوب وأمم كثير كانت موحدة ولكنها كانت إلي جان ذلك تحمل مضموناً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يقدم حلولاً ملائمة لمعظم المشكلات والتي كان منها الناس سواء فى الجزيرة العربية أو خارجها وعل يالأخص فى الطبقات الفقيرة المستعبدة.**

**وقد قامت الدعوة لترسيخ مبادئ اجتماعية واقتصادية وسياسية هامة منها الدعوة إلي العدالة والأخوة والتكافل الاجتماعي ومحاربة الاستغلال والرق والتسلط الاقتصادي ، فضلاً عن ديمقراطية الحكم بحسب مبدأ الحكم شوري بينكم ، عملاً بالأيتين "وشاورهم فى الأمر" و"أمرهم شوري بينهم".**

**أما فيما يخص الأسرة وشئونها ومكانة المرأة فيها وفى المجتمع، فقد أولي الدين الاسلامي أهمية كبيرة لهذين الموضوعين فقد اهتم بشئون الزواج والطلاق وحضانة الأطفال والأرث، كما أفاض فى تناول العلاقة بين الزوجة والزوج والأباء والأبناء.**

**وقد اختلف الفقهاء ورجال الدين والمفكرون حول تفسير هذه الأمور فى الدين الاسلامي، وانقسموا إلي فريقين : فريق مستنير يقوم تفسيره لشئون الأسرة وتحديد مكانه المرأة ودورها علي أساس تحقيق العدالة والمساواة بين المرأة والرجل ، ويري أن الأصل فى الدين هو تحقيق هذا المبدأ الهام ، وفريق أخر يتخذ موقفاً جامداً متزمتاً ورجعياً من هذه الأمور ويتخذ من التمييز بين المرأة والرجل منطلقاً أساسياً فى تفسير الدين الاسلامي لها.**

**وكما هو معروف فإن الاختلافات بين العلماء والمفكرين والفقهاء يختلف باختلاف موقعهم الاجتماعي وموقفهم السياسي فهم أما محافظون يدعمون الوضاع والنظم القائمة علي الاستغلال والتمييز والقهر، أو راديكاليون (يمكن وصفهم هنا بتقدميين يسعون إلي تغير الأوضاع لتحقيق العدالة والمساواة والتحرر الاجتماعي وسوف نعرض لراي فريق فى تفسير الدين لشئون الأسرة ومكانة المرأة والعلاقة بينها وبين الرجل ثم ننهي هذا الجزء بتحليل سوسيولوجي عام.**

**أولاً :** الفريق الأول ويمثل التيار المستنير في الإسلام ، يرى علماء الدين وفقهائه ومفكريه المستنيرين أن تنظيم الأسرة في الإسلام قام على أسس من أهمها :

1. احترام اختيار الزوجة لزوجها ، وعدم اجبارهاعلى الزواج ممن لا تريد ، ويستشهد أصحاب هذا الفريق بأمثلة عديدة منها السيدة أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق التي رفضت الزواج من عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين ، ولما سألتها أختها عائشة : ترغبين عن أمير المؤمنين ؟ ردت في صؤاحة وقوة : نعم إنه خشن العيش ، شديد على النساء ، كما رفضت عائشة بنت طلحة الزواج من بشر بن مروان لتتزوج من ابن عمها الذي تحبه .
2. ومن مرونة الفقه الإسلامي وواقعيته المستنيرة ، أنه اعتبر تعدد الزوجات في الإسلام خاضعاً للظروف الاقتصادية والاجتماعية والصحية التي تحيط بالفرد والأسرة والمجتمع واعتبره تارةً مباحاً وتارةً مكروهاً محرماً .

ويستشهد المفكرون على ذلك بأن الرسول قد رفض رفضاً قاطعاً أن يتزوج عليبن أبي طالب على ابنته فاطمة وصاح من فوق المنبر لاآذن ... لاآذن ... لاآذن إلا أن يحب علي بن أبي طالب أن يُطلق ابنتي ، وينكح ابنتهم فإنما ابنتي بضعةٌ مني يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها .

كما يرون ان إباحة الإسلام للتعدد كانت قائمة مع نظرة ديناميكية واقعية للإسلام ، فالظروف السياسية التي اقتضتها انتشار الدعوة أدت إلى حتمية الحروب مما زاد من اعداد النساء على الرجال ، وكثرة عدد الأرامل واليتامى ، فما كان على الإسلام إلا أن ينظم هذه المسألة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية بإباحته التعدد في هذه الظروف ويؤكد هذا ا ، الآية التي أشارت إلى التعدد جاءت في معرض الحديث عن اليتامى بقوله " وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ".

وفي موضوع العدل بين النساءجاء القول قاطعاًفيآية أخرى " ولن تستطيعوا أن تحرصوا بين النساء ولو حرصتم ".(النساء:129)

1. أما موضوع الطلاق فقد أعطى الإسلام للمرأة الحق في طلب الطلاق والانفصال عن زوجها إذا أساء عشرتها ، بل ذهب إلى حد اعطاء المرأة العصمة بيدها فيعقد الزواج فان لم تكن فعليها أن تفتدي حريتها وكرامتها بما تدفعه لزوجها من مال بإسم " الخُلع" مادام هناك سبب مقبول من الأسباب المفصلة في الفقه الإسلامي ، الغيبة الطويلة أو العجز عن مباشرة الحقوق الجنسية ، أو سوء المعاملة ،أو استحالة التجاوب والتعاون بينها وبين زوجها على إسعاد الأسرة .

كما أن هناك أمثلة عديدة على الاستجابة لطلب المرأة للطلاق لمجرد " البُغض " فهذه السيدة الخنساء بنت خزام الأنصاري ، تشكوا إلى الرسول أن أباها لم يأذن لها في الرجل الذي اختاره قلبها ، وأرغمها على الزواج من رجلٍ آخر فقال لها الرسول : انكحي من شئتِ ، وردت نكاح ابيها وأذن لها في الزواج ممن اختارته هي على الرغم من أبيها وهناك مثلٌآخر معروف عن احدى الجاريات التيأعتقتهن السيدة عائشة وتسمى " بريرة " وقد أراد زوجها أن يرغمها على البقاء معه ، وكانت لا تطيقه ، فلما شفع الرسول له عندها سألته في صراحة وقوة : يا رسول الله : أهي شفاعة من عندك أم أنت تأمرني بذلك ؟ فأجابها الرسول إنما أشفع ، فقالت لا أريده زوجاً لي ، فأجابها الرسول لطلبها .

1. يرى المستنيرون من فقهاء الإسلام أن الإسلام قد أعطى للمرأة حقوقها متساوية مع الرجل في كافة جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كحق العمل وحق التعليم وحق الممارسة والمشاركة السياسية .

ويقف العلامة أبو اليد بن رشد فقيه الفقهاء منذ أكثر من ثمانية قرون ليؤكد هذا المعنى بقوله " أنه يجب على النساء أن يقمن بخدمة المجتمع ، والدولة قيام الرجل " ويضيف بن رشد بأن الكثير من فقر عصره وشقائه يرجع إلى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه ، كأنها نبات أو حيوان أليف خلقت لمجرد متاعه بدلاًمن أن يمكنها من المشاركة في انتاج الثروة المادية والعقلية وفي حفظها بل ذهب هذا المفكر السابق إلى أن العبودية التي نشأت عليها المرأة قد أتلفت مواهبها ، وقضت على مقدرتها العقلية ، لهذا قل أن تجد امرأة ذات فضائل ، وهن عيال "[[3]](#footnote-3)" على أزواجهن كالحيوانات الطفيلية .

وضرب الفقهاء في هذا المجال بأمثلة كثيرة لنساء مسلمات تألقن في مجال الثقافة والعلم ، ومن هؤلاء السيدة عائشة بنت طلحة حفيد أبي بكر الصديق التي كانت تشهد مسابقة الرماية ، وتناضل بين الرجال بالسهام والنبال ، كما عرف عنها مجالسها الثقافية والاجتماعية المشهورة ، والتي كان يشاركها فيها شيوخ بني أمية ومثقفوهم وشعراؤهم ، حتى أنها تفوقت عليهم في الثقافة الفلكية .

ومن النماذج المعروفة أيضاًفيهذا المجال السيدة سكينة بنت الحسين بن على ، التي كانت شاعرة وأديبة وعالمة ومثقفة وكان مجلسها الذي يشهده العلماء والأدباء والشعراء ، أيضاً السيدة عمرة الجمحية التي عرفت سفورها ومغالطتها للرجال في مجالسها العلمية، وتفوقها عليهم بعلمها وأدبها وثقافتها ، وعن ممارسة الحقوق السياسية ، فالأمثلة كثيرة أهمها دور السيدة خديجة بنت خويلد في نصرة الدعوة الإسلامية ، ودور أسماء بنت أبي بكر في حماية الرسول ووالدها ابي بكر في الهجرة من مكة إلى المدينة ، والحرب التي أعلنتها عائشة على علي بن أبي طالب ، إلى غير ذلك من الأمثلة التي توضح مشاركة المرأة في كافة الشئون السياسية بما في ذلك حقها في المشاركة في القضاء والحكم ، ويقول في ذلك بن جرير : لاتشترط الذكورة في القضاء، لأن المرأة يجوز لها أن تكون مُفتية ، فيجوز لها أن تكون قاضية ... ، ويقول أبي حنيفة " يجوز أن تكون المرأة حاكماً على الإطلاق في كل شئ ..".

هكذا يتضح لنا الموقف المستنير لفقهاء الإسلام المستنيرين من موضوع المرأة ، دورها ومكانتها وعلاقتها بالرجل في السرة والمجتمع ، وإذا كنا قد أفضنا في عرض هذا الجزء بهدف الكشف عن كثير من المغالطات والأوهام والأفكار الرجعية التي تهيمن على عقول الكثير حتى يومنا هذا ، والتي مصدرها الرئيسي هو ذلك التيار الفكري المغلق والضيق ، المتزمت والرجعي.

وفي الصفحات التالية سنحاول أن نعرض لبعض من آرائهم وأفكارهم والخلفية الاجتماعية والسياسية التي ينطلقون منها .

**ثانياً : التيار المحافظ في الإسلام :**

ويضم فريق كبير من الفقهاء ورجال الدين والعلماء، وينطلق من موقف فكري متزمت يعبر عن موقفهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

وينظر أصحاب هذا الفريق إلى المرأة نظرة جزئية ضيقة فهم لا يرون فيها إلا أنها مجرد أنثى يفتن جسدها الرجل ويوقعه في براثن الغواية ، ويقصرون كل ادوارها وإمكاناتها عند حدود الإنجاب وتربية الطفال وخدمة الزوج وإمتاعه والامتثال الكامل له بالطاعة والخضوع، وهم بناءً على موقفهم هذا يجردون المرأة من كافة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الأسرة ، وبناءً على ذلك يحددون قواعد لتنظيم شئون الأسرة وتحديد مكانة المرأة وعلاقتها بالرجل في الآتي :

1. حق الرجل الكامل في تعدد الزوجات فيكل زمان ومكان.
2. حق الرجل في تطليق زوجته وقت ما يشاء وبالكيفية التي يراها .
3. حق الرجل في السيادة الكاملة على المرأة والأبناء في الأسررة في مقابل الخضوع والطاعة من جانب الزوجة .
4. حق الرجل في حضانة الأبناء بعد السنوات الأولى من تربيتهم ، فهو الذييورثهم ماله وأسمه ونسبه وحسبه .
5. فرض الحجاب والاحتجاب على المرأة ، ضماناً لحصانتها وعفتها وحرصاً على تجنب الرذيلة .

وإذا كان التيار المستنير قد استند على أراء فقيه الفقهاء بن رشد في تفسيره لمكانة المرأة ودورها وعلاقتها بالرجل فقد استند أصحاب التيار المحافظ الرجعي على أراء أبو حامد الغزالي ولقبوه بحجة الإسلام.

وتقوم فلسفة أبو حامد الغزالي ونظرته للمرأة في وصفه للزواج من المرأة بأنه " نوع من أنواع الرق " واعتبر المرأة حيواناً أليفاً مسكيناً يرثى له ، يعطف عليه ، ويحافظ بالحجاب والسوار خوفاً منه وخوفاً عليه .

وقد حدد حجة الإسلام هذا واجبات المرأة المسلمة في كل زمان ومكان بالآتي:

1. قاعدة فيبيتها ، فلا يكثر صعودها واطلاعها على سطوح الجيران .
2. أن تكون قليلة الكلام لجيرانها وألا تدخل عليهم إلا فيحال توجب الدخول عليهم .
3. أن تحفظ بعلها في غيبته وحضرته وتطلب مشورته في جميع أمورها ، وألا تخونه في نفسها وماله .
4. ألا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإذا أذن لها بالخروج فلتخرج مختفية في ثيابٍ رثة ، ولتلتمس في خروجها المواضع الخالية، مبتعدة عن الشوارع والأسواق، محترزة أن يسمع غريب صوتها، أو يعرف شخصيتها .
5. وإذا استأذن صديق لبعلها على باب المنزل- ولم يكن بعلها حاضراً بالمنزل – فواجبها ألا تستفهم من هذا الصديق عن سبب حضوره ، وألا تبادره بالكلام ، تأدباً منها بأدب الغيرة على زوجها .
6. وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله ، مقدمة حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها .
7. وأن تكون متنظفة في نفسها ن ومستعدة فيجميع الأحوال ، ليتمتع بها زوجها إن شاء .
8. وأن تشفق على أولادها .
9. وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج ، وسب الأولاد .
10. وأن تقوم بكل خدمة تقدر عليها في دارها .

وفي حقيقة الأمر فان السرد الطويل الذي أوردناه سالفاً عن استقلال المرأة وارتفاع مكانتها في الإسلام عبر عنه الفقهاء المستنيرين ، كفيل بأن يرد على كل هذه الادعاءات الظالمة التي ان دلت على شئ، فهي تدل على أن اصحابها إنما يعبرون عن مواقفهم الشخصية ويتسترون وراءالدين لإضفاء شرعية على تلك المواقف التي يسعون بها لتحقيق مصالحهم الطبقية والسياسية .

وليس من قبيل الصدفة أن تنشر هذه الأفكار و الدعاوي الرجعية في فترات الأنحطاط و التدهور الأ قتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمعات العربية خلال تاريخها الممتد حتي وصلت بها الي عصر الجمود والتخلف لاوالذي وصف "بعصر الحريم " في ظل الحكم التركي نالذي فرض فيه الحجاب والتحجب علي المرأة وسلبت كل حقوقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بل والانسانية أيضاً داخل السرة وفي المجتمع بصفة عامة فبالاضافة الي سلب حقوقها الاسرية وفي حرمت من حقها في التعليم والعمل ، والمشاركة السياسية والجتماعية في كافة المجالات في المجتمع

ويرد اصحاب الاتجاه المستنير علي دعاة الرجعية في مسألة حجاب واحتجاب المرأة بأعتباره الضمان الوحيد لحصانتها وحمايتها ، بقولهم " ان فيهذا افلاس للتربية ، فالتربية الصحيحة هو الضمان الذي لا يضر معه سفوره ، ولا ينفع بدونه حجاب ان امام المجتمع الطبيعي الجامع بين الجنسين لا الجامع الانفضالي الشاذ ، الذي يفصل بين الجنسين فصلاً تاماً هو الكفيل بتنظيم العلاقة بين الجنسين وتهذيبها لكي تقوم علي التقدير والاحترام المتبادل بين الجنسين , بحيث ينظر كل جنس الي الاخر نظرة ندية تري فيه شريكاً كاملاً في صنع الأسرة والمجتمع والحياة .

**خامساً: الأسرة والمرأة في عصر النهضة الأُوروبية :**

تبين لنا من خلال عرض التطور الذي مرت به المجتمعات الأوروبية وانعكس في آراء وأفكار الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين كتعبير عن تحالف طبقة الاقطاع والكنيسة لتدعيم السلطة الطبقية (سلطة الأشراف والنبلاء) والسلطة الأبوية - سلطة الرجل الكاملة علي المرأة في الأسرة والمجتمع فانحطت وتدنت مكانة المرأة وتحولت النساء الي جواري وغانيات لخدمة الاسياد وأمتاعهم والترفيه عنهم .

إلا ان هذا الواقع قد بدأفي التغير والتحسين التدريجي في القرن الخامس عشر ، نتيجة لتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت خاصة علي أثر اكتشاف طريق رأس الرجاءالصالح ، الذي أدي الي انتعاش في حركة التجارة والصناعة الجديدة الناشئة .

وقد صاحب هذا التغير في الأوضاع والظروف الاقتصادية للمجتمع تغيراً في نسق القيم و الافكار والفلسفات التي سادت كما بدأت مكانة المرأة ترفع شيئا فشيئاً ساعد على ذلك ظهور عدد من المفكرين والفلاسفة ورجال الدين الذين دافعوا عن حق المرأة في ألا يضطهدها زوجها . ومن هؤلاء مارتن لوثر وكالفن .

ومع هذا فإن عصر النهضة لم يعدل من الحقوق القانونية للمرأة ، ولكنه أدى إلى تطورات كبيرة في نسق القيم والأخلاق ، فقد تراجعت التقاليد الإقطاعية والأفكار الخرافية أما روح البحث والاختراع والنزعة الفردية والإنسانية ، فاكتسبت المرأة نوعاً من الاستقلاق وشاركت في الحياة الفكرية ووجدت من يدافع عنها .

ومع قيام الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر وظهور المجتمعات الرأسمالية ، أتيح لعدد متزايد من النساء إمكانية العمل ، ولكن الآلت الجديدة قضت في الوقت نفسه على الأشغال اليدوية التي كانت وقفاً على النساء ، كالغزل والحياكة ، وبذلك اشتدت حمى المزاحمة في سوق العمل وشاعت البطالة وتدنت أجور العمالة النسائية.

وبالرغم من الدور البارز والحاسم الذي لعبته النساء في الثورة الفرنسية ، عندما اقتحمت عاملات الضواحي وبائعات سوق الخضار وفي الخامس والسادس من أكتوبر 1789 أبواب المجلس البلدي مطالبالت بالخبز ، ثم زحفن على قصر فرساي بأعداد قدرت بحوالي 8000 امرأة مما دعا ميشلية أن يقول : "كان الرجال قد استولوا علي الباستيل , فإن النساء قد استولين على المملكة " بالرغم من هذا فإن الثورة بعد نجاحها رفضت أن تمنح المرأة حقوقها المدنية واقتصرت في إصدار قانون يبيح الطلاق ، وذلك في عام 1792 .

وعندما استتبت أقدام النظام الراسمالي ، أزاح من أمامه كل العراقيل الإقطاعية ، الاستغلال اليد العاملة الحرة ، ولخفض الأجور عن طريق استخدام النساء والأطفال ، ثبتت الدولة البرجوازية نظام الأسرة ، ركيزة العهد البورجوازي ، وجاء قانون نابليون المدني يعبر عن ذلك ، فقد جعل المرأة المتزوجة تحت وصاية زوجها ، انطلاقاً من أنها ملك لزوجها الذيتنجب له أولاده ، وقد صرح نابليون أمام مجلس الدولة : " أن الطبيعة قد جعلت في نسائنا عبدات لنا " ومن حق الزوج أن يقول لزوجته : سيدتي لن تخرجي اليوم ، لن تذهبي إلى المسرح ، لن تري هذا الشخص أو ذلك ، وبعبارة أخرى سيدتي : انت ملكاً ليروحاً وجسداً .

لقد اكتشف الأُجَراء من العمال والنساء أن تضحياتهم من أجل انجاح الثورات الاجتماعية البورجوازية ، قد ضاعت هباءً ، وأنهم تحولوا تحت قبضة الراسمالية إلى شكلٍ جديد من العبودية .

وقد عكست كتابات الأدباء والمفكرين في ذلك الوقت خيبة الأمال التي كانت معقودة على المجتمع الجديد الذي بشر به فلاسفة عصر التنوير ، من أمثال هؤلاء كتابات الاشتراكيين الطوبائيين كسان سيمون وفروبيه في فرنسا ، وأويب في انجلترا ، حينم أدانوا المجتمع الرأسمالي ووصفوه بأنه فوضوي وغاشم ، حلت فيه سيطرة طبقة محل سيطرة طبقة أخرى ، وتمت فيه التناحرات الاجتماعية ، وفوضى الانتاج وذاع فيه بؤس الشعب وافترس فيه البشر بعضهم بعضا ، وتأبدت عبودية المرأة .

وقد حاول سيمونيين بوجه خاص من أن يحرروا المرأة من الذي ترزخ تحته ، فنادوا بإعادة الإعتبار للمتع الجنسية ، انطلاقاً من فكرة أن ما خلقه الله لم يكن رجساً، وأن الجسد شأنه شأن الروح ، من خلق الله ، إلا أن مايعيب انسان سيمونية يكمن فيعدم اعتمادها على تحليل طبقي، فكانت نظرتهم للمرأة لا من خلال دورها الاجتماعي ، وإنما من خلال وظيفتها الجنسية وبوصفها رمزاً للجسد الذي كانت هذه المدرسة قضيبه ، فارادت بذلك تجديد المجتمع بواسطة مذهب صوفي شهواني ، ومن هنا كانت الخيبة العميقة التي انتهى إليها أعضاؤها .

أما فوربيه ، بما عرف عنه من خيال ولذاعة هجاءوحس رفيع بالعدالة ، فقد طالب بانعتاق المرأة والمساواة القانونية بين الجنسين وبحرية العواطف ، وقد رأى أن خير الأمم هي تلك التي تمنح النساء القدر الأكبر من الحرية .

ذلك هو المعيار الحقيقي للتقدم الاجتماعي ، وقد قال في كتابه نظرية الكتاب الأربع : " أن التقدم الاجتماعي والتغيرات المرحلية تتم حسب تقدم النساء نحو الحرية ، وانحطاط النظام الاجتماعي تابع لنقصان حرية النساء ... ان توسيع امتيازات النساءهو المبدأ العام لكل تقدم اجتماعي " . كما قرر أن النساء قادرات ، شأن الرجال تماماً على القيام بشتى أنواع الأعمال ، وعندما تتاح لهن إمكانية اظهار طاقتهن الطبيعية ، فإنهن يعادلن الرجال ويتجاوزونهنَ .

وفي نقد فوربيه للحضارة ، أدان بشدة التجارة والزواج اللذين يقومان على الكذب والرياء ، والكذب في العلاقات الاقتصادية ، والرياء في العلاقات الجنسية والزواج القائم على " مضاربات شرهة " ينمي الأنانية ويذل المرأة ، حتى قبل الزواج ، لأنه يوجب على الفتاة أن تعرض نفسها كبضاعة لابُد لها من شارٍ مهما كان الثمن ، وهكذا تتسم تجارة الأجساد تحت ستار القانون .

وبرغم هذه الأفكار المتقدمة لفوربيه فقد وقع – ِانه شأن غيره من الطوبائيين – فيخطأ الخلط بين تحرر المرأة والإباحة الجنسية ، وهو مالم يدرك أن تحرر المرأة رهن بالتطور الاجتماعي والتاريخي ، بل كان كل ظنه أن هذا التحرر مرهون بحرية العواطف والعلاقات الجنسية وحدها .

ومع أي نقد قد يوجه إلى الطوبائيين ، إلا أنه لابد من تقرير حقيقة أن أفكارهم قد ساعدت مؤسسي الاشتراكية العلمية فيما بعد (ماركس وانجلز ) على تقديم نظريتهم الشاملة في التطور الاجتماعيللمجتمع الإنساني وفي تفسير وتحليل أنظمة الأسرة والزواج ، وفيالكشف عن التناقضات الرئيسية التي خلقت الشروط التي أدت إلى استبعاد المرأة واضطهادها .

وهكذا يبدو لنا جلياً من خلال العرض السابق لنظم الأسرة والزواج ووضع المرأة في المجتمع ، والحضارة أن الظروف الاقتصادية وعلاقات الانتاج والملكية وما تعكسه من تاقضات اجتماعية روجَ لها بعض المفكرين والفلاسفة على مدار الحضارات المختلفة ، فجاءت أفكارهم تبريراً لأوضاع قائمة في المجتمع ، وتبريراً لكل اشكال الاضطهاد والتميييز والقهر .

ان المغالطات العلمية والاجتماعية الاقتصادية والدينية التيوقع فيها الكثير من المفكرين والفلاسفة على مدى عشرين قرناً أو أكثر ، انما تفتقر إلى ابسط أدوات التفكير العلمي بل المنطقي كما أن كثيراً من الحقائق التي خرجوا بها إلى الناس في كل عصر من العصور ، وقد اثبتت البحوث والدراسات العلمية الحديثة زيفها .

وبرغم هذه الحقيقة فلاتزال مثل هذه الأفكار تهيمن على عقول الناس ، بل ان العديد من النظم والنظريات والقوانين الحديثة التي تحكم مجتمعات اليوم ، تستند عليها في تنظيمها لشئون الأسرة والزواج ، وفي تحديد وضع المرأة في المجتمع ومكانتها وأدوارها وعلاقتها بالرجل .

1. والمقصود هنا بخدمة البطن أنها خلقت لطهو الطعام ولتقديم الشراب. [↑](#footnote-ref-1)
2. ويقصد بالعصر البطولي المرحلة التي سادت فيها الحروب من أجل توسيع الأملاك وجلب الغنيمة [↑](#footnote-ref-2)
3. **() والمقصود بعيال هنا : أن النساء أصبحن عالة على الأسرة والمجتمع .** [↑](#footnote-ref-3)